فلسفة القوة عند نيتشه في المخيال السينمائي الأمريكي

–مقاربة موضوعاتية في نماذج من أفلام رعاة البقر–

د. سوالمي الحبيب جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

Abstract:

This article talks about the theory of power of supreme man or future man of the philosopher Nietzsche, and the impact of this theory on the active elite in the European, American, and global circles, the article also examines how the United States deals with this theory in the field of film industry, through a brief show of models of cowboys films, which embodied the spirit of American power dominating the world, as well as showing the power of the white man at the expense of Native American Indians.

These cinematic models of Western American films or cowboy films promoted the concept of invincible American man power, who has all the solutions to all the problems, and the other must just surrender his power and obey his orders.

The viewpoint establishes the Superman theory which must be the example and the savior according to the philosopher Nietzsche.

Key words: power theory, supreme man, cowboy films, American cinema, conflict of control, the philosopher Nietzsche.

الملخص باللغة العربية:

يتناول المقال نظرية القوة والرجل الأعلى أو الرجل المستقبلي عند الفيلسوف نيتشه، وأثر هذه النظرية في النخبة الفاعلة في الأوساط الأوروبية والأمريكية والعالمية. كما يتعرض لكيفية تعامل الولايات المتحدة الأمريكية مع هذه النظرية في مجال الصناعة السينمائية، من خلال عرض مختصر لنماذج من أفلام رعاة البقر، والتي تجسدت فيها روح القوة الأمريكية المسيطرة على العالم، وكذا إظهار قوة الرجل الأبيض على حساب السكان الأصليين – الهنود الحمر–.

هذه النماذج السينمائية المتمثلة في أفلام الغرب الأمريكي أو أفلام رعاة البقر، روجت لمفهوم قوة الرجل الأمريكي الذي لا يقهر، والذي يملك كل الحلول لكل المشاكل، وما على الآخر إلا الاستسلام لقوته والانصياع لأوامره.

هي وجهة نظر تؤسس لنظرية السوبرمان الذي يجب أن يكون هو القدوة وهو المخلص حسب وجهة نظر الفيلسوف نيتشه.

الكلمات المفتاحية: نظرية القوة، الرجل الأعلى، أفلام رعاة البقر، السينما الأمريكية، صراع السيطرة، الفيلسوف نيتشه.

توطئة:

يمزج نيتشه في حديثه عن القوة بين نظريتين اثنتين هما: نظرية داروين ، التي مفادها أن الصراع بين البشر في هذه الحياة هو صراع من أجل بقاء الأصلح، ونظرية شوبنهاور الذي يؤكد على أن مقصد الحقيقة، ومنتهاها يكمن في إرادة الإنسان. وقد أسْهَم نيتشه إسهاماً خطيراً في انتشار فكرة عدمية الإله، أو موت الإله التي أسس لها بحيث كان لها أيما تأثير في النخبة الفاعلة في الأوساط الأوروبية والأمريكية ثم العالمية، باعتبار أن أوروبا كانت منبع الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر.

يرى نيتشه أن منطق القوّة هو: "الحقيقة التي يؤمن بها الإنسان الأعلى"[1]. ونفهم من هذا القول أن القوة بالنسبة له هي التي تحدد شخصية الإنسان، هذه القوة يمكن أن تكون قوة فكر أو قوة مادية أخرى.

انطلاقا من هذا المفهوم ينقسم بني البشر إلى صنفين: صنف قوي وآخر ضعيف، أما الصنف القوي فهو الذي يتحكم بإدارة هذا العالم، وهو الذي يؤسس أو يبتكر القيم التي يجب أن يتبعها الضعيف، حتى وإن كانت هذه القيم لا تخدم الضعيف، فالقوي يخترع قيما من أجل تبرير أفعاله لأنه هو المسيطر، بينما الإنسان الضعيف ما هو إلا مقلد أو تابع؛ وكأن نيتشه في مفهومه هذا يتقاطع مع ابن خلدون عندما يقول: إن المغلوب دائما مولع بتقليد الغالب، هذا التقليد لا يأتي نتيجة اقتناع من المغلوب ولكن نتيجة إكراهات يفرضها الغالب عليه، وما تلك القيم الأخلاقية التي يحاول الضعيف التمسك بها إلا وسيلة تساعده على الهرب وعدم القدرة على المواجهة.

لقد بشر نيتشه في فلسفته التي عُدَّتْ في وقته جديدة وقلبت موازين الفكر الفلسفي- بشر بالإنسان الأعلى أو السوبرمان- هذا النموذج هو الذي تسعى الإنسانية للوصول إليه، فهو بابتكاره لمصطلح موت الإله يريد أن يقول أن الإنسان القوي هو الإله الذي نراه ونتلمسه ويجب أن نتخذه معبودا. وهو بهذا يتحدى الميتافيزيقا والعادات التي تعارف عليها البشر قبله. وقد أعطى أمثلة إنسانية استطاعت أن تجسد مفهوم السوبرمان مثل يوليوس قيصر، ونابلوين. كما يعطي مفهوما آخر للصراع عكس مفهوم داروين الذي أكد على وجود الصراع من أجل البقاء، بينما جعله نيتشه صراع من أجل العظمة والقوة[2].

تَجلِّيات فلسفة القوة فِي نماذج من أفلام رعاة البقر:

بما أننا نعيش اليوم في عالم تحكمه علاقات إعلامية متشابكة وضخمة، تصنع الرأي العام وتوجه الدول والمجتمعات وفق أطر إيديولوجية تمليها المصالح، والمآرب، أصبح امتلاك هذه السلطة التي كانت إلى وقت قريب رابعة، وأصبحت اليوم سلطة أولى، أمرا ملحا وضروريا، ولعل أبرز الوسائط الإعلامية التي تعتمدها الدول الكبرى للسيطرة على عقول المتلقين وأفكارهم هي السينما التي استثمرت فيها الولايات المتحدة الأمريكية أيما استثمار، فجعلتْ منها صناعةً قائمة بذاتها تستخدم لإيصال أيديولوجيتها ومفهومها للعالم، وذلك بفعل ضخامة إنتاجها السينمائي الذي تتربع على عرشه هوليوود.

تَمَظْهَرتْ نظرية القوة لنيتشه بجلاء في المخيال السينمائي الأمريكي منذ البدايات الأولى عن طريق الشركات الاحتكارية التي سيطرت على هذا المجال، وخاصة في أفلام رعاة البقر "cowboy". هذا المصطلح الذي تعدى في دلالته مفهوم راعي البقر؛ فهو كما تصوره السينما الأمريكية رجلٌ لا يطيق السكون، ودائم البحث عن الثروة والمجد، وهذا السلوك هو الذي يبرره نيتشه في مفهومه للصراع من أجل السيطرة والتفوق كما سبق الذكر، على أنَّ حركية الرجل الأبيض القوي تجعله يصطدم مع الآخر، وقد وضعت عليه هالة من القوة جعلته رمزا للسيادة على الأرض الأمريكية.

يُعَدُّ هذا النوع من الأفلام – أفلام رعاة البقر- تصويرا للكبرياء والقيم الأخلاقية التي يتمتع بها الرجل

الأبيض الأمريكي، فنراه يُصَوَر تصويرا بطوليا من خلال نشره للحضارة في الحدود الغربية الأمريكية، أين يوجد ذلك الهندي الأحمر المتخلف والشرس من وجهة نظر هوليوود، والتي حاولت التأريخ لظهور هذه الدولة، ولكن هذا التاريخ لم يكن تاريخا موضوعيا، بل اعتمد نظرية القوة، التي ركزت على فكرة مفادها أن القوي هو من يكتب التاريخ، هذا التاريخ الذي صورته لنا هوليوود من خلال أهم نجومها مثل جاك هوكسي () ووليام هارت (William Hart) وكذا ألمع مخرجيها مثل جون فورد (John Ford) الذي أسس لأنجح أفلام رعاة البقر في الولايات المتحدة الامريكية[3]. هذا التاريخ لم يكن حقيقيا، بل كان يقدم من وجهة نظر سلطوية لا تعترف بالآخر، حيث يقول جاك ناشبار في هذا الصدد:" إنها ليست التاريخ كما حدث فعلا، وإنما التاريخ كما جرى تصوره..."[4].

صورت أفلام رعاة البقر سواء المصنفة من الدرجة الثانية التي تقوم على الغنائية واللهو، أو تلك الأفلام التي تعد تأريخا للغرب الأمريكي، رجل الكوبوي تصويرا بطوليا، وقدمته للمتلقي العالمي على أنه ذلك الرجل الذي يريد دائما التقدم إلى الأمام ولا يهمه الماضي، وهذا ما يؤكد عليه نيتشه في انتقاده للتاريخ الذي يجعل منه عبئا على الحضارة؛ فالتاريخ بالنسبة له يمكن أن يهدد الحاضر، فهو ينفي الحضارات السابقة من خلال قوله: "ليس لدينا نحن المحدثين ثقافة نقول عنها أنها ثقافتنا، فنحن نملأ أنفسنا بعادات وفلسفات أجنبية، وكذلك بديانات وعلوم بحيث نصبح موسوعات جوالة. فتمثل الماضي واستخدامه في صنع حياتنا وثقافتنا هو مسخ لإرادتنا، فالتاريخ ما هو إلا عبء ميت ثقيل على الحاضر"[5].

هذه الأفلام إذن هي إسقاط جيد لنظرية القوة على ما حدث في مرحلة من مراحل تطور المجتمع الأمريكي، ثم إن أفلام الكوبوي تروح إلى معنى آخر مفاده أن رجل الغرب الأبيض متحرر، من خلال ما تظهره لقطات الخيول والمسدسات فهذا الرجل يحمل السلاح بدون خوف ويتباهى به أمام الناس، وفي ذلك دلالة على حرية معنوية للرجل الأبيض تدفعه إلى المضي قدما نحو الأمام.

– الفرجيني: عدالة الكوبوي والتضحية من أجل الآخر

ولم تغفل هذه النوعية من الأفلام وقوف هذا الرجل إلى جانب العدالة من منظور أمريكي، فرجل الكوبوي يعمل على زرع الأخلاق النبيلة، ومثال ذلك فيلم "**الفرجيني**" الذي يشكل نموجا تقليديا لأفلام الغرب الأمريكي، والذي أنتج سنة 1969، ويعبر هذا الفيلم على هذه المعادلات التي تحاول السينما الأمريكية إنتاجها والمتمثلة في العدالة والنظام والأخلاق، إذ يضطر **غاري كوبر الفرجيني** وقائد حملة مطاردة للإشراف بنفسه على إعدام صديق له شنقا، على الرغم من عدم قناعته بذلك، إلا أن يواجه خيارا مأساويا يصطدم بخياره الأخلاقي، فلو اختار إنقاذ صديقه سيحطم صورته التي هي أساس وجوده، أما لو اختار شنق صديقه في سبيل المبادئ العليا فإن ذلك سيكون مبررا حتى لصديقه الذي سيتفهم موقفه. إلا أنه سيتلطخ بذنب القتل، غير أن ما يضع الأمور في نصابها هو الوصول إلى الشرير الحقيقي وقتله هذا الشرير هو زعيم عصابة سرقة الماشية الذي فر وترك صديق كوبر في مواجهة العدالة"[6].

يظهر لنا هذا الفيلم عدالة رجل الكوبوي وأخلاقه الرفيعة، فهو يضحي بمصلحته الخاصة في سبيل المصلحة العامة، لكن في حقيقة الأمر هذا لا يتطابق وسياسة الخراب التي استعملتها السلطات الأمريكية في وجه الهنود الحمر من أجل محو آثارهم كلية من على خارطة التأثير الاجتماعي والسياسي في هذه القارة الجديدة، بحجة أن الرجال البيض الأشداء إنما قاتلوا الهنود الحمر من منطلق كفاحهم من أجل البقاء في أرض قاحلة وضد أعداء متوحشين لا يعرفون للحضارة معنى.

– دم المقاتل: شجاعة رجل الكوبوي وهمجية الهندي الأحمر

في هذا النسق قدم المخرج والمنتج "**غريفث**" قبل ظهور هوليوود فيلم "**الدم المقاتل**"، إذ أظهر من خلاله

غزوة هندية على مجموعة من البيوت، لكن فرسان الكوبوي قاموا بنجدة هذه العائلات من مخالب الهنود الحمر[7]. فقد صور هذا الفيلم الهندي الأحمر تصويرا دراماتيكيا جعل منه مخربا ومرتزقا ولا هم له سوى القتل، وهذا راجع إلى أيديولوجية مبيتة ضد السكان الأصليين للقارة الأمريكية، فأفلام الكوبوي ما هي إلا ترجمة لتاريخ من العواطف لصناع هذه الأفلام ابتداء من غريفث ومرورا بجون أوين وهارت ووصولا إلى جون فورد وغيرهم من الذين كانت لهم علاقة حب بالأرض التي سكنوها، لكن هذا الحب كان براغماتي يصب في فائدة المكتشفين الأوائل لأرض حضارة المايا.

وتتمحور جل أفلام رعاة البقر أو الكوبوي حول الصراع مع الهنود الحمر، أو بتعبير آخر حسب وجهة النظر الأمريكية الخارجون عن القانون، فالهندي الأحمر حسب الأمريكيين يهدد استقرار المجتمع، لهذا يجب عليهم الوقوف في وجه الهمجية الهندية من أجل ربح المعركة الفاصلة والتي تؤدي حتما إلى تلاشي الهنود الحمر وارتفاع راية العدل الأمريكية حسب مفهوم منتجي هذه الأفلام.

– آخر الموهيكانز: ويتواصل التزوير

من بين الأفلام التي تتجلى فيها نفس الرؤية نجد فيلم "**آخر الموهيكانز**"، الذي جسد البطولات الملحمية للرجل الأبيض في وجه العصابات الهندية، ويشرح الباحث جون كارلي هذا الفيلم فيقول:" إن سكان البلدة يحومون مدافعين عن مستوطناتهم وهم مهددين من قبل الخارجين عن القانون والهنود الذين ارتبطوا بعناصر عدائية لا يمكن السيطرة عليها كامنة في مناظر الطبيعة المحيطة بالأحداث، إن الخارجين عن القانون والهنود يستطيعون التحرك بحرية عبر تلك المناظر..."[8]. هذا القول يحيل إلى أمر مهم، وهو أن منتجي أفلام رعاة البقر ومخرجيها قد وظفوا الطبيعة الأمريكية بغاباتها وصحرائها، لتخدم البطل الذي يسعى لمحاربة هولا الخارجين عن القانون والهنود خدمة لهدف معين وهو إظهار عظمة الرجل الأبيض وقوته، ودفاعه عن أرضه مقارنة بأولئك الأوباش الهنود في نظرهم.

– عربة الركاب: إيديولوجية الشكل.

في النسق نفسه يصور جون فورد في فيلمه "**عربة الركاب سنة 1939م**" شارعا في بلدة من بلدات الغرب الأمريكي المتوحش، بلدة تنتشر فيها الأكواخ المميزة بواجهاتها المهترئة، ويظهر أمام الكاميرا رجال من الهنود الحمر يلبسون ثيابا رثة، عكس أهل البلدة الذين يرتدون ثيابا نظيفة وجميلة وراقية، حيث استعمل المخرج الأزياء خدمة لهدفه الذي يريد إيصاله للمتفرج؛ فهو يريد أن يقول أن أهل البلدة البيض هم متحضرون ولهم ذوق رفيع في مظهرهم الخارجي، بينما الهندي الأحمر همجي ومتخلف وغير نظيف، يهدد الجماعة الأولى، أما بطل الفيلم فهو رجل أبيض ينتمي إلى رعاة البقر، يحمي أهل البلدة من أولئك الهمج[9]، وبتعبير آخر فرجل الكوبوي هو رجل فوق العادة، بقوته التي تجعله حامي الحمى ولا شيء يعلو على سلطته. وهذي هي نظرة نيتشه لمفهوم القوة والرجل السوبرمان.

تنطلق جل مواضيع أفلام الكوبوي في هوليوود من همجية الهنود الحمر، الذين يشنون هجمات وغارات مفاجئة، لكن بقدوم الخيالة المنجدين يتلاشون كالهشيم الذي تذروه الرياح، وهذه سمة أفلام الكوبوي التي أخذ تهميش السكان الأصليين فيها قسطا كبيرا من مواضيعها، وعند تصفح التاريخ الامريكي نكتشف في الحقيقة تاريخ الرجل الأوروبي الأبيض الذي دخل القارة الجديدة مستعمرا فأصبح معمرا من جهة ومدمرا من جهة أخرى، فبنظرة متفحصة لهذا التاريخ نكتشف حجم التزييف والطمس الذي مس هذا التاريخ، عندما غُيِّب السكان الأصليون من معامل هوليوود للصناعة السينمائية، فهي لا تحكي القصة الحقيقية التي تشير إلى أن أسطورة رجل الكوبوي إنما شيدت على أنقاض أسطورة الهنود الحمر، بل تحكي القصص من منطلق الرجل الأمريكي الذي يواجه تهديد الهنود من كل حدب وصوب، حيث الموت المحمول على رأس رمح أو سهم قد يداهمه في أية لحظة[10]، لذلك فإن رجل الكوبوي

يعيش حياته في قلق دائم وحركة دؤوبة، وهذا ما يجعل أفلامهم أكثر تشويقا وإثارة، وهو الهدف الذي يخطط له مخرجو ومنتجو هذه الأفلام، لكن فيما وراء الصورة تعتمل خطابات أيديولوجية تنسج هالة من التفرد والروعة حول الكوبوي الرامز إلى كل أمريكي يؤمن بقيم الهوية الأمريكية التي تنزع إلى السمو على باقي الأجناس[11]، وهي فكرة نيتشوية بامتياز، تدعو إلى سمو الرجل الأمريكي وارتقاءه على باقي الأجناس البشرية.

تسوق هذه الأفلام مفاهيم وأفكار متمثلة في الديمقراطية وحقوق الإنسان، ومؤخرا عبر نسق جديد من الأفلام بات يتم التسويق للعولمة الأمريكية، فصناع هذه الأفلام لهم هاجس تسويق منتجاتهم الاقتصادية من سلع وبضائع مثل الكوكا كولا والمارلبورو، والجينز الأمريكي، وغيرها من المنتجات، لهذا فإن أفلام السينما الأمريكية سواء الكوبوي في مرحلة النشأة أو افلام السوبرمان في مرحلة متأخرة تحاول أن تسوق للعالم عولمة وفق نظرة أمريكية أحادية النظر.

وبالعودة إلى أفلام الكوبوي، فإنها ومن منطق نيتشه الذي يؤكد على ضرورة جعل التاريخ خادما للقوة المسيطرة، تناقض حقيقة الواقع وتزور تاريخ القارة الجديدة التي اكتشفها كريستوف كلومبوس، محاولة طمس التاريخ الأصلي الذي تبدأ منه أمريكا الحقيقية، ألا وهو تاريخ الهنود الحمر، وفي ذلك دلالة أيضا على أن الرجل الأبيض ليس أمريكيا بالتاريخ والأصل بل بالاستعمار والاستحواذ، فتاريخه يبدأ يوم سطا على أرض الغير فقلب حقيقة التاريخ رأسا على عقب، عندما جعل الاستعمار اكتشافا وسرقته لتراث السكان الأصليين – الذين سماهم هو هنودا حمرا- دفاعا عن النفس، هذا المشهد المأساوي في حقيقة الأمر كرس فكرة الصراع الدائر رحاه بين الإنسان الأبيض الأوروبي والسكان الأصليين الذين سماهم كريستوف كولومبوس هنودا حمرا معتقدا أنه وصل إلى شبه القارة الهندية، ولكنه في الأصل كان قد اكتشف قارة جديدة. هو صراع من أجل الأرض، إذن حاول الكوبوي السينمائي بطريقة فنية ملتوية دحض هذا الصراع الأصلي من خلال تبرير أفعال الرجل الأبيض وجعله رمزا للتحرر والعدالة والأمن واكتساب شرعية مزيفة، وتحطيم معنويات السكان الأصليين بالإساءة إلى مقوماته وهويته وثقافته، واقتصاديا بتجويعه وفصله عن موارد العيش الكريم، وإقصائه سياسيا، وإلى غير ذلك من الجرائم المضرة بالتاريخ والتي تستهدف سلخ الهندي الأحمر من ذاكرة التاريخ الأمريكي، لكن رغم هذا فالهنود لم يتنحوا كلية بفعل بشاعة ما ارتكبه في حقهم الرجل الأبيض، محاولا تزييف صورته في سينما هوليوود بصفة خاصة والسينما الأمريكية بصفة عامة، وفق نظرة نيتشويه لا أخلاقية تدعو إلى موت الإله وسلطة القوة، وتأليه الرجل القوي.

وبحسب بعض المصادر التاريخية من وجهة نظر أخرى، فإن الهندي الأحمر لم يتنح جانبا في خضم صراعه مع الرجل الأوروبي الذي دخل غازيا إلى أرضه بل ونتيجة لشعوره بأن مصلحته مهددة، أصبح يبادر إلى استعمال العنف، حيث نظم **أبيشانكو** وهو زعيم اتحاد القبائل القاطنة حول مستعمرة فرجينيا هجوما سنة 1622م قتل خلالها 346 مهاجرا إنجليزيا، وقد قام هذا الزعيم بعدة هجومات حيث بلغ عدد القتلى في إحدى المعارك 500 قتيلا من المهاجرين الأوروبيين، كما اشتعلت في سنة 1637م معارك ضارية في أراضي إنجلترا الجديدة والمسماة بمعارك "البيكو"، حيث تم قتل عدد هائل من السكان الأصليين على يد قائد الجيش الإنجليزي الكابتن ماسون، إذ فاق عدد قتلى الهنود الحمر حسب بعض الإحصائيات التاريخية ستمائة رجل وامرأة وطفل من الهنود، وتم إزالة قبيلة البيكو عن آخرها. وقد حدث كل هذا لأن الهنود في القارة الجديدة لم يكون على كلمة واحدة[12]. بعد هذه المرحلة بدأ الهنود الحمر يدركون أهمية التوحد ونبذ الخلافات التي كانت قائمة بينهم، وكذا تزايد مد المهاجرين وتكاثر مستعمراتهم، فشن الهنود بين سنتي 1675- 1715 ثلاثة حروب ضد المستعمرين الأوروبيين وأشهر هذه الحروب حرب الملك

فليب 1675م التي قامت ضد مستعمرة بليموث ولم تنته الحرب إلا بمقتل الزعيم الهندي ميتاكوميت سنة 1676م[13]. وقد تواصلت الحروب بين المستعمر الأوروبي الذي استعمل كل قوته للقضاء على العرق الأصلي لسكان هذه القارة، الذين تعرضوا لمجازر دموية لا أخلاقية ارتكبها الرجل الأوروبي القوي ضد شعب مسالم.

Apocalypto الحضارة القادمة من أوروبا.

غير أن التاريخ الأمريكي الحديث سواء المكتوب أو الذي يروى عن طريق الوسائط الإعلامية الحديثة مثل السينما، يقوم بوصف تلك الحروب بطريقة مفادها أن الأوروبيين هم شعوب مسالمة، وقد جاؤوا بالسلام والعلم إلى هذه الأرض، ولم يعتدوا على أحد إلا لضرورة قصوى من أجل الدفاع عن أنفسهم ومواجهة همجية الهنود الحمر أو السكان الأصليين للقارة الجديدة، هذه الهمجية صورتها السينما الأمريكية وخاصة الحديثة منها تصويرا فنيا يكاد يقنع المتلقي الساذج الذي لا يملك دراية كافية بتاريخ الأوروبيين في القارة الأمريكية، فعلى سبيل المثال فيلم Apocalypto الذي أخرجه الممثل والمخرج الأمريكي ميل غيبسون (Mel Gibson)، سنة 2006 [14]. ويتعرض فيه لطبيعة حياة الهنود في السنوات التي سبقت دخول المكتشف كريستوف كولومبوس إلى القارة الامريكية، حيث يركز الفيلم على تخلف الهنود والمجازر الرهيبة التي كانت ترتكب تحقيقا لعادات وتقاليد فاسدة، في خضم هذا الفساد المتوالي عبر محطات الفيلم يختتم ميل غيبسون كل ذلك بمشهد تظهر فيه سفينة آتية من بعيد، ورجال يبدو عليهم الوقار وهم يحملون راية إسبانيا، وقائد السفينة يحمل كتابا، وكأن المخرج يريد أن يقول: أن هذا الرجل الأوروبي الذي جاء مكتشفا هذه الأرض الجديدة، قد وجدها في تخلف وهرج ومرج، فأتى بالعلم والحضارة لأهل هذه البقعة من المعمورة.

هذا الفيلم وعلى الرغم من الدقة العالية في التصوير الفني، إلا أن المخرج قد سقط في مستنقع الأنانية، حيث يعتبر الفيلم من السقطات القليلة لهذا المخرج من الناحية الموضوعاتية، فالمخرج قد بالغ في تصوير الهمجية الهندية، من منطلق إيديولوجية غربية مسيطرة تبرر الاحتلال الأوروبي للقارة الجديدة[15]، وفق نظرية نيشوية تنظر لمفهوم البقاء للأصلح، **هذا** الأصلح هو الذي يمتلك القوة.

الراقص مع الذئاب: اعتذار متعال

وللإنصاف فإن هناك بعض الأفلام السينمائية الأمريكية التي أنصفت الهنود الحمر ودافعت عن حريتهم ووجهة نظرهم، على الرقم من قلتها، هذه الأفلام أنتجت في مراحل متأخرة من القرن العشرين، نذكر منها على سبيل المثال فيلم "الراقص مع الذئاب Dances wth wolves الذي اخرجه ومثل فيه دور البطولة الممثل كيفين كوستنر، ويعتبر هذا الفيلم من أفلام الكوبوي، حيث تدور أحداثه حول ضابط أمريكي يسمى **جون دنبر** Dunbar، يتم نقله على إثر الحرب الأهلية الأمريكية إلى نقطة بعيدة في الغرب الأمريكي، وتنتهي رحلته بالعيش مع أفراد قبيلة هندية تدعى قبيلة "السبوكس"، هذا الضابط وبعد فترة من التوجس والشك المتبادل بينه وبين أفراد القبيلة التي كانت بجوار الثكنة المهجورة التي كان يعيش فيها، بدأت ملامح الثقة تزداد بينه وبينهم، وبدأ في التعايش معهم. حينها اكتشف أن ما يروى عن هؤلاء الهنود وأن الهالة المرسومة حول توحشهم وهمجيتهم، ما هو إلا نسج من الخيال، وتزييف للحقيقة، فآمن بقضيتهم الوطنية وتبناها، وواجه معهم جبروت الأوروبيين، ساعيا كل جهده ومستعملا علاقاته الشخصية والسياسية للدفاع عن حريتهم[16].

هذا الفيلم هو إعادة اعتبار فريدة من نوعها لمواطني أمريكا الأصليين، حيث يعتبر من المحاولات الناجحة في السينما الأمريكية التي اتخذت رؤية مضادة لسينما الكوبوي بصفة عامة، قدم من خلاله المخرج والممثل كيفين كوستنر اعتذارا لأصحاب الأرض على طريقته الخاصة، فالراقص مع الذئاب انقلبت فيه الصورة التقليدية التي سجلتها الكثير من أفلام رعاة البقر عن الرجل الهندي، إذ يجد المشاهد نفسه متعاطفا مع قبيلة السبوكس التي تمثل الهنود الحمر لأنهم يتمتعون بصفات إنسانية راقية مثل حب السلام والشجاعة.

هذا الفيلم وعلى الرغم من دفاعه عن قضية الهنود الحمر، غير أن العقلية الأمريكية المتعالية على الآخر، والتي نجد فيها نوعا من التأثر بفلسفة الإنسان الأعلى الذي لا يجب أن ينزل إلى مستوى الناس العاديين، لكونه إنسانا فوق العادة، وهي نظرية نيتشوية بامتياز، وقد تجلت في الفيلم من خلال مشهد بسيط هو مشهد زواج الكابتن **جان دنبر** من إحدى الفتيات من قبيلة السبوكس بعد أن أنقذها من الموت، يتبين للمُشاهد مع تتابع أطوار الفيلم أن هذه الفتاة ليست هندية بالأصل، وإنما هي أوروبية وضعتها الظروف بين أحضان هذه القبيلة التي عاملتها كابنة من بناتها، ثم يأتي هذا الضابط فيتزوجها ويأخذها في نهاية الفيلم بعد أن استقر أمر القبيلة[17]، وكأن المخرج يريد أن يقول، على الرغم من دفاعي عنكم إلا أنه لا يجب أن أختلط بكم لأنني أنا الأقوى. وأنا الأفضل ولا يليق لبني جنسي الاختلاط بمن هم أقل منزلة منا.

خاتمة:

ما يمكن قوله عن تعامل صناع السينما الامريكية مع نظرية القوة النيتشوية، هو أن صناع هذه الأفلام قد استفادوا إلى حد كبير من هذه النظرية، باستخدامها سواء في الأفلام القديمة أو الحديثة منها، وفق نسق يتقاطع ورغبة صناع السياسة الأمريكية في السيطرة بداية على العالم الجديد، ثم الانتقال بعد ذلك للسيطرة على العالم بأسره ساعدهم في ذلك القوة المالية التي تتربع على عرشها الشركات الاقتصادية الأمريكية والتي أسست لصناعة سينمائية عملاقة.

وما يلفت النظر في هذه الصناعة الخطيرة، هو أنها استطاعت إلى حد كبير ومع مرور الوقت إقناع العالم بأن الرجل الأمريكي لا يقهر، من خلال الكم الهائل من أفلام الرجل السوبرمان الأمريكي، وتربع هذه الأفلام على عرش قاعات السينما في مختلف دول المعمورة، فأصبح المتلقي الذي يكره المارينز الأمريكي في الواقع يتماهى معه عبر سينما تصور الظالم مظلوما والمظلوم ظالما، حتى يتم تبرير كل ما تقوم به الآلة العسكرية الأمريكية من مجازر أين ما حلت.

الهوامش:

1. نضال البيابي، قراءة في الفلسفة العدميّة لنيتش، ميدل إيست أون لاين، نشر في 29-11-2010.
عن http://www.middle-east-online.com/?id=100820
https://maktaba-amma.com/?p=612
2. المرجع نفسه.
3. ينظر رياض عصمت، سينما الغرب الأمريكي، منشورات وزارة الثقافة المؤسسة العامة للسينما، دمشق، 1997، ص08
4. المرجع نفسه عن جاك ناشبار، ص 16.
5. نضال البيابي، قراءة في الفلسفة العدميّة لنيتشه، ميدل إيست أون لاين، نشر في 29-11-2010.
http://www.middle-east online.com/?id=100820
6. ينظر رياض عصمت، سينما الغرب الأمريكي، عن روبارت وارشو، المرجع السابق، ص 28.
7. المرجع نفسه، ص 32.
8. رياض عصمت، سينما الغرب الأمريكي، عن جون كارلي، م س، ص 72.
9. ينظر المرجع نفسه ، ص 73-74.
10. ينظر رياض عصمت، سينما الغرب الأمريكي، م س، ص75.
11. ينظر نضال البيابي، قراءة في الفلسفة العدميّة لنيتش، ميدل إيست أون لاين، نشر في 29-11-2010.
12. د. عبد العزيز سليمان، د عبد المجيد نعنعي، تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، دار النهضة العربية للنشر، بيروت لبنان، ص 46.
13. د. عبد العزيز سليمان، د عبد المجيد نعنعي، تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، دار النهضة العربية للنشر، بيروت لبنان، ص 46.
14. ينظر فيلم Apocalypto إنتاج:icon production، 2006، dvd.
15. ينظر فيلم Apocalypto إنتاج:icon production، 2006، dvd.
16. ينظر فيلم الراقص مع الذئاب Dances wth wolves، إنتاج: Majestic films inter national، 1990، dvd.
17. ينظر المرجع نفسه.